Journal Of the Iraqia University (73-1) June (2025)

ISSN(Print): 1813-4521 OnLine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/247

مكانة العقل في المنظور الإسلامي

د. طه عبدالله محمد

الجامعة العراقية /كلية العلوم الاسلامية

The Status of Reason in the Islamic Perspective

Dr. Taha Abdullah Muhammad
University of Iraq / College of Islamic Sciences

ملخص البحث

العقل في منظور الفكر الاسلامي هو مناط التكليف واعظم تشريف لأكرم مخلوق والعقل في اللغة هو الحجر والنهي، فهو يعقل الإنسان عن اقتراف الآثام وارتكاب الأخطاء: وإن مرادي من البحث إيضاح مكانة العقل المفكر في السنة النبوية على غرار ما هو واضح جليٌ في القرآن الكري فقد ذكر القرآن الكريم العقل في ٤٩ موضعاً من القرآن الكريم، ذاك أن السّنة جاءت شارحة ومبيّنة ومقرّرة لما في كتاب الله عز وجل، وأنّ رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى وأنّ للعقل في سنّة رسول الله ﷺ حظاً عظيماً يدل على أمَّة اقرأ وشريعة العلم والنور، وانه سبب من اعظم اسباب العلم وليس مصدرا له. **الكلمات المفتاحية: (العقل، الفكر، الحكمة، اولو الالباب، يتفكرون،)**

Research summary

The mind, in the perspective of Islamic thought, is the basis of obligation and the greatest honor for the most honorable of creation. The mind in the language means the stone and prohibition, as it restrains a person from committing sins and errors. My intention in this research is to clarify the position of the thinking mind in the Prophetic Sunnah, similar to what is clear and obvious in the Holy Qur'an The Holy Quran mentioned the mind in 49 places in the Holy Quran. , that the Sunnah came to explain, clarify and establish what is in the Book of God Almighty, and that the Messenger of God, may God bless him and grant him peace, does not speak from his desires, and that the mind in the Sunnah of the Messenger of God, may God bless him and grant him peace, has a great share that indicates the nation of "Read" and the law of knowledge and light, and that it is one of the greatest causes of knowledge and not a source of it. Keywords: (mind, thought, wisdom, people of understanding, they think)

المقدمة

الحمد لله الغفار الوهاب، منزل الوحي والكتاب، مسبب الأسباب، ومجري السحاب وهازم الأحزاب، والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا محمد سيد أولي النُّهى والألباب وعلى آله الطيبين والأخيار الصّحاب، رضوان الله عليهم أجمعين.وبعد فمما أستجلب اهتمامي بكتابة بحث بهذا العنوان ((المكانة الفكرية للعقل في السنة النبوية)أني كلما قرأت كتاباً في العقل وماهيته، وما يتعلق به، رأيت كثرة الأدلة القرآنية وفي ذلك كلّ الخير ،وساورني ظنّ بأنه لم يصحّ عن رسول الله ﷺ شيء في العقل وماهيته، وبعد رجوعي إلى مؤلفات الأقدمين ممن خصّ موضوع العقل بالتأليف والتصنيف، وطالعت كلام وتعليق المحققين فيما أُورِد في هذه الكتب فإذا بها تجمع الكثير من الأحاديث التي كثر فيها الكلام، وكان أغلبها حكمهُ الضّعف، من هنا حاولت جاهداً البحث عما صح، وما حسن وما يمكن الاستدلال به مع ما ورد في هذا الموضوع من كتاب الله عزّ وجلّ.وإن مرادي من البحث إيضاح مكانة العقل المفكر في السنة النبوية على غرار ما هو واضح جليٌ في القرآن الكريم*، ذاك أن السّنة جاءت شارحة ومبيّنة ومقرّرة لما في كتاب الله عز وجل، وأنّ رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى وأنّ للعقل في سنّة رسول الله ﷺ حظاً عظيماً يدل على أمَّة اقرأ وشريعة العلم، ودين النور وصدق الله العظيم إذ يقول: ((وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)) [سورة العنكبوت، الآية ٤٣.]وقد جاء البحث مكونا من مقدمة

وثلاثة مباحث وخاتمة:فكان الأول: تعريفاً للعنوان في اللغة والاصطلاح، مع مطلب الإشارات القرآنية وأثر العقل المسلم في الحضارة الإنسانية، وكانت المكانة الفكرية للعقل في السنة النبوية هو موضوع المبحث الثاني، وكان الثالث تحت عنوان العناية والتربية النبوية للعقل المسلم، والرابع النشاط العقلي الفكري في العصر الأول ثم الخاتمة.وما كان من صواب فهو مَنٌّ الله الكريم عليّ، فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وما أخطأت فيه فهو من نفسي والهوى والشيطان، وأسأل الله أن يغفره لي ويتجاوز عني، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول: التعريف بمفردات العنوان

المطلب الأول: التعريف بمفردات العنوان

أولاً: العقل – لغة واصطلاحاًالعقل لغةً: هو العلم، والحجر والنهية، والجمع عقول والعاقل هو الحابس لنفسه ليردها عن هواها، وعقل الشيء أدركه على حقيقته وفهمه وتدبره، وسمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن المهالك يقال: عقلتُ الناقة – إذا منعتها السير – فأصل اشتقاق العقل بمعنى الامتناع، والعقل ضد الحمق، وهو العلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها (الزبيدي: ٨ / ٣٥، ابن منظور، ١٩٥٦م: ١١ / ٤٥٨، الفيروز أبادي ١٨، ٤ / ١٩، الفيومي، (ت ٧٧٠هـ): ٤٢٢) وفي المعجم الفلسفي((والعقل في اللغة هو الحجر والنهي، وقد سمي بذلك تشبيهاً بعقل الناقة... لأنه يمنع صاحبه من العدول عن سواء السبيل، كما يمنع العقال الناقة من الشرود، فالعقل يعقل الإنسان عن اقتراف الآثام وارتكاب الأخطاء)) (مجمع اللغة العربية، ١٩٧٩: ١٢٠).واصطلاحاًفأن تعريف العقل مختلف فيه فلا حد له جامع بسبب كونه لفظاً مشتركاً يطلق على كثير من المعاني.قال الغزالي (رحمه الله): (إذا قيل ما حدّ العقل فلا تطمع في أن تحدّه بحدّ واحد فإنه هوس لان اسم العقل مشترك يُطلق على عدّة معاني) (الغزالي، ١٩٩٣: ٢٣/١)ومعنى العقل في القرآن والسّنّة المطهرة:وهنا نجد أن هذه المادة استعملت في القرآن الكريم بالمعاني اللغوية من التفكر والتدبر والفهم والمعرفة والعلم والتمييز، وعقل النفس، وحبسها عن الوقوع فيما فيه أذاها وشرها.قال شيخ الإسلام: (العقل في كتاب الله وسنّة رسوله وكلام الصحابة والتابعين وسائر أئمة المسلمين هو أمر يقوم بالعاقل، سواء سمي عرضاً أو صفة، ليس هو عيناً قائمة بنفسها) (أبن تيمية، ١٩٨٤: ٩ / ٧٢١)، وقال أيضاً: (إن أسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة، وهو الذي يسمى عرضاً قائماً بالعاقل وعلى هذا دل القرآن في قوله تعالى: ((.. لعلكم تعقلون))، وقوله تعالى: ((أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا)) [الحج: ٤٦]، وقوله تعالى: ((قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ))[آل عمران: ١١٨])(ابن تيمية: ٢٨٦/٩)والمتتبع للاستعمالات القرآنية سيجد الكثير من هذه المعاني، ولكن ما ورد على معنى العلم دون العمل أو العمل دون العلم لا يعني الفصل بينهما بل المراد كلا المعنيين على وجه الالتزام، فالمعنى المراد هو العلم الذي يعمل به: قال تعالى على لسان أهل النار: ((وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ))[الملك:١٠].وقد عرفه المتكلمون على أنه: (علم ضروري بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، عند سلامة الدلالات) (المحاسبي والغزالي: ٥٨).وقال أهل الحديث هو: (غريزة في الإنسان) (الجوزي، ١٩٨٦: ٣١).والعقل عند الفلاسفة: (جوهر مجرد عن المادة) وهو (العلم بحسن الحَسن وقبح القبيح) (الغزالي، ١٩٦١: ٢٨٨).والعقل عقلان عند الماوردي – رحمه الله – ذاك انه يقسّمه إلى غريزي ومكتسب:أما الأول فهو: (ما كان مبتدءاً في النفوس كالعلم بان الشيء لا يخلو من وجود أو عدم، وأن الموجود لا يخلو من حدوث أو قدم، وأن المحال اجتماع الضّدين، وأن الواحد أقلّ من الاثنين، وهذا النوع من العلم لا ينبغي أن ينتفي عن العاقل مع سلامة عقله، فإذا صار عالماً بالمدركات الضرورية، فهو عاقل عقلاً غريزياً يناط به التكليف) (الماوردي: ٣)وأما المكتسب: (فهو نتيجة العقل الغريزي الموصلة الى نهاية المعرفة وصحة السياسة، وإصابة الفكرة، وليس لذلك حدّ ينتهي إليه، لأنه ينمو إن أستعمل وينتقص إن أُهمل، ونماؤه يكون بكثرة الاستعمال إذا لم يعارضه مانع من هوى ولا حياد من شهوة، ولا قامع من خوف، وهذا العقل مناط التكريم المتفاوت بتفاوت نسبة الاكتساب) (الماوردي: ٤).

ثانياً: تعريف الفكروالفكر والتفكر في اللغة: التأمل، وإعمال النظر في الشيء، قال صاحب المصباح: (الفكر تزود القلب بالنّظر والتّدبر لطلب المعاني، ولي في الأمر فكر ؛ أي نظر وروبّة) (الفيروزآبادي، ٢٠٠٥: ١١١/٢، الرازي، ١٩٨٣: ٥٠٩، الفيومي، ١٩٩٦:٤٧٩)وفي الاصطلاح: قال الجرجاني: (هو ترتيب أمور معلومة للوصول إلى مجهول)(الجرجاني، ١٩٨٦: ٩٦).ولا شك أننا عندما نذكر في العنوان لفظة الفكر عنينا بها الموصوفة (بالإسلامي) ذاك أن معنى هذا المركّب الوصفي الحديث العهد قد عرفه بعض العلماء المحدثين فقالوا بأنه:(المحاولات العقلية من علماء المسلمين لشرح الإسلام في مصادره الأصلية القرآن والسنة) (البهي، ١٩٧١: ٥).وعرّفه د. حسن التّرابي بأنه: (التفاعل بين عقل المسلمين وأحكام الدّين الأزلية الخالدة) (الترابي، ١٩٨٧: ٩).

المطلب الثاني: مكانة العقل عند العلماء

إن العقل شرط من شروط صحة الإيمان والعمل وما من كتاب في الفقه وأصوله ولا علم للحديث بجرحه وتعديله الا وذكر الشروط الواجبة في المسلم والمؤمن التي تصحح ما قد وجب عليه من التكليف الشرعي الا كان العقل مذكوراً بينهما وفي مقدمتهما. فهو مناط التكليف وأساس الخير والنّجد الذي يكون العبد شاكراً معه، وإن كنّا نتحدّث عن مكانة العقل الفكرية في السنة النبوية فان أهل الحديث يشترطون العقل في العدل الذي تقبل روايته ويكون أهلاً لتحمل الحديث ونقل العلم.ولذلك تجد معنى العدالة عندهم تحقق شروط خمسة، وهي:الإسلام، والبلوغ، والعقل، والتقوى، والاتصاف بالمرؤة (الاعظمي، ١٩٩٥: ١٨٦).والذي أراه أن للعقل مكانةً أساسية ركنية بين تلك الشروط، لأن مَنْ ذهب عقله فكيف يطالب بشيء مما ذكر، ثم إن هذا العلم كبقية العلوم المعرفية الأخرى يتطلب عقلاً متميزاً بنشاطه ودقته وسرعة ملاحظته، ومما لا شك فيه أن فاقد العقل لا قدرة له على حفظ أو ضبط رواية، فالخبر الذي يرويه كلام منظوم له معنى معلوم فلا بد من اشتراط العقل المميز بين الخير والشر، والحق والباطل فكيف بالعقل المبدع المفكر!!؟

المطلب الثالث: أثر العقل المسلم في الحضارة الإنسانية

لقد ترك العقل المسلم بصمته الواضحة وعبر العصور على فكر وحياة الإنسانية أجمع، بحيث أمتد التأثير إلى حدّ تجد أن كثيراً من الحركات والنزعات والطوائف من النّصارى، أخذت توضح وتبيّن أصول عقائدها ؛ لا سيّما عقيدة التثليث بشكل أشبه ما يكون من عقيدة التوحيد الإسلامية، فراحت تنكر إلوهية المسيح والاعتراف بالخطايا أمام القُسس، ووجّهت الإنسان النّصراني بالتّضرع إلى الله وحده ليغفر ذنوبه وما أرتكبه من جرائم وآثام (الندوي، ١٩٧٨: ١٨٠)وبالتالي فان ذلك الأثر واضح حتى (لا يستطيع دين من الأديان ومدنية من المدنيات ان تعيش في العالم المتمدن المعمور ان تدعي أنها لم تتأثر بالإسلام والمسلمين في قليل ولا كثير) (الندوي، ١٩٧٨: ١٨٠).ثم ان أوربا التي تقدّمت وتطورت وخرجت من ظلمات الجهل التي كانت تعيشه قد كان للحضارة الإسلامية فيها ما لا يجحد ولا ينكر، ذاك أن العلوم الطبيعية لم تكن هي التي أعادت الى أوربا الحياة بل كان ذلك أثر ما وصلها من أشعة الحضارة الإسلامية (الندوي، ١٩٧٨: ١٨٠؛ العقاد، ١٩٥٠: ١٦٤/١)ولعل ذلك الأثر هو تابع لما أكرم به المولى تبارك وتعالى رسوله ﷺ بان تكون معجزته تحاكي العقول وتخاطب أُولي الألباب على خلاف ما أوتي غيره من الأنبياء والرسل من دلائل النبوة والإعجاز.يقول د. أحمد شلبي: (إنّ المعجزات السابقة كانت تشده العقول، وتفحم الأذهان، فلا تتيح للإنسان فرصة التفكير مما يؤدي في الختام الى تكذيب الرسول في دعواه. وهذا ما عبر عنه القرآن بقوله تعالى: ((وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ))[الاسراء: ٥٩]، أما معجزة محمد ﷺ فاتجاه آخر: إنها معجزة فيها تحدٍّ، ولكن بهدوء وروية، مع استخدام العقل، واستعمال الفكر، فالإسلام دين المعجزات التي يراها العقل حيثما نظر، وليس بدين المعجزات التي تكف العقل عن الرؤية وتضطرّه بالإقحام القاهر الى التسليم) (شلبي، ١٩٧٣: ١٤٦).وفي هذا المعنى يقول الدكتور العقاد:(إن القرآن الكريم أرشد الإنسان الى أنّ المعجزة قائمة حواليه حيثما جال بعينيه، وكثيراً ما تختتم الآيات القرآنية بعد استعراض الآيات الكونية بالعبارة ((إنّ في ذلك لآيات لقومٍ يعقلون))، فمن مرّت به آيات الأرض والسماء ولم ينظر إليها، ولم يتفكر بها، ولم يعرف منها ديناً خيراً من دين الوثنية والتعطيل فلن تزيده الآيات الخارقة الا ضلالاً على ضلال) (العقاد، ١٩٦٠: ١١٨).

المطلب الرابع: الإشارات القرآنية الى العقل

مما عرف عند العرب وكلامهم أن ما كثرت أوصافه عظم شأنه، وقد جاء في القرآن الكريم الكثير من الآيات بأسماء وألفاظ مرادفة للعقل منها: اللبُّ، قال تعالى: ((وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ))[البقرة: ١٩٧]، والألباب جمع لبّ (الرازي: ٥٨٩)' ويقال بنات ألبب: عروق في القلب يكون منها الرقة، والنُّهى، قال تعالى: ((أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى))[طه: ١٢٨]، والنُّهى وصف للعقول التي تنهى عن القبيح (الرازي: ٦٨٣)، والحلم، قال تعالى: ((إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ))[التوبة: ١١٤]، في مقام المدح لعبده إبراهيم عليه السلام، وقوله تعالى: ((أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ))[الطور: ٣٢] في مقام الذم لتلك العقول والأحلام البعيدة عن الصراط المستقيم.ومنها الحِجْر، قال تعالى: ((هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ))[الفجر: ٥]، والحجر هنا بمعنى العقل واللب(القرطبي، ٢٠٠٦: ٤٣/٢٠)، والقلب، قال تعالى: ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ))[ق: ٣٧]كما أشار القرآن الكريم الى العقل ببعض ما ينسب إليه من الفكر والنظر والبصر والتدبر والاعتبار والذكر والعلم، وغير ذلك من الكلمات الذهنية التي يضيق البحث بذكر كل آياتها، ومن خلال ما تقدم تبين لنا وبشكل جلي تلك المساحة القرآنية الكبيرة التي ذكرت العقل ومشتقاته ومرادفاته وأفعاله مما يؤكد مكانة ذلك الأمر في شريعة الإسلام ودستوره وكيف أن القرآن الكريم لا يذكر العقل الا في مقام التعظيم والتنبيه الى العمل به والرجوع إليه بصورة مباشرة وبلفظ جازم (العقاد، ١٩٥٤: ١٣).وقد أعطى القرآن الكريم للعقل ما لم تعطه إياها الكتب السابقة وان المطالع لما بين أيدينا من نسخة العهد القديم والجديد ليجد بان العقل ومادته أو ما يخصه لم يذكر الا بضع عشرة مرة وبشكل عرضي لا يتنبه القاري معها الى أهمية ومكانة

تلك الهبة الربانية كما هو الحال مع القرآن الكريم اذ وردت مادة عقل لوحدها ما يقارب الخمسين مرة (رضا، ١٩٨٦: ٢٦١).ولعل الحكمة الربانية التي جعلت معجزة خاتم النبيين وهو معجزة تخاطب العقول والقلوب قرانا خالدا محفوظا يكون أتباعه (المسلمين المؤمنين) هم الاكثر يوم القيامة. فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ:« مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِىٍّ إِلاَّ وَقَدْ أُعْطِىَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِى أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَىَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ فِى الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُوسُفَ وَغَيْرِهِ عَنِ اللَّيْثِ وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ قُتَيْبَةَ.

المبحث الثاني: المكانة الفكرية للعقل في السنة النبوية

مقدمة:وفي هذا المبحث تكثر الأحاديث الواردة عن مكانة وفضل العقل والعقلاء والعلم والعلماء الا أنك تجد البعض منها فقط ما هو صحيح متواتر[١]، وأنَّ كمّاً كبيرا منها فيه كلام كثير عند أهل الحديث، وقبل أن نورد ما صحّ، وما حسن في هذا المقام أود مناقشة هذا الأمر الذي كان سبباً لكتابة بحثي هذا، وهو كثرة النصوص القرآنية في هذا المقام وقلّتها في السنة المطّهرة، أو عدم اشتهارها، والذي أظنّه أنّ سبب ذلك ما يأتي:

١– يعد القرآن الكريم هو المصدر الأول في التشريع الإسلامي، وفي كلّ استنباط وحكم وكلّ اجتهاد وفكر، وقد خوطب العرب بلسانهم وبلغتهم التي لا يحتاجون معها الى مزيد بيان وتوضيح، اللّهم إلاّ فيما أُجمل وأحتاج الى بيان وتفسير من النبي ﷺ لذا كان رسول الله ﷺ يعظ ويوجّه على المنبر، بذكر سورة من القرآن أو بضع آيات من القرآن، مكتفياً في خطبته وتوجيهه.

وبالتالي ؛ فانك يوم تبحث عن مكانة العقل، ومنزلته في هذا الدين ستجد له في القرآن ذكراً كثيراً، وتأكيدا صريحاً، ومدحاً للعاملين به، وذّماً للهاملين له، حتى لا تكاد سورة تخلو من الدعوة إلى النّظر والفكر، واستخدام اللّب والعقل، الأمر الذي لم يبقِ للسّنة النبوية مكاناً واسعاً يحتاج الى تعليق أو شرح أو بيان، فكان ما ورد قليلا إذا ما قورن بالوارد في كتاب الله عزّ وجلّ.

٢– أَن النبي ﷺ قد أُوتي جوامع الكلم حتى تجد فيما ورد منه الغاية في العقل والمقصد في هذا الشأن، وكان ﷺ يترك القرآن ونصّه المعجز يدافع، ويحاجج ويجادل، إذ في القرآن من الإعجاز والتّحدي ما ليس في السّنة المطهرة قال تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ)[البقرة: ٢٣]ولعل حديثاً واحداً من جوامع الكلم في منزلة العقل طال شرحه وكثرت معانيه حتى كتبت فيه مجلدات.وعلى سبيل الذكر لا الحصر، قوله ﷺ للأشج – أشج عبد القيس –: (إنّ فيك خَصلتين يحبُّهما الله ورسوله: الحلمُ والأناة)(النووي، ١٩٩٤: ١/١٣٩)ولعمري إن تلك الخصلتين من أهم صفات ومستلزمات أهل العقل، فالحلم مرادف هنا للعقل المتّصف بصفات الكمال، والأناة تعني التثبت وعدم العجلة وهذا مما كان يفهمه العربي القرشي وغيره بالسليقة الفصيحة التي خُصّ بها أهل الجزيرة العربية وقبائلها التي اعتادت وتفاخرت بالكلام المسجوع والمقفّى والمبني على الحذف والتقدير(النووي، ١٩٩٤: ١/١٣٩)والحلم هو العقل المتزن في أحكامه، لا تسرع عنده ولا يخضع للهوى، وقد وصف ربّ العّزة نفسه بالحلم فقال: ((وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ))[الحج: ٥٩]، ومعناه الصبور الذي لا يستخّفه عصيان العاصين، ولا يستفزّه الغضب عليهم، وقد ورد الحلم مع العلم لأن الله تعالى يعلّم الناس ما ينفعهم من التشريعات التي تنظّم لهم حياتهم، لأن مقام العلم لابدّ لأهله أن يكونوا متصفين بالحلم والأناة(الفيروز آبادي: ٤/٨٥؛ الجوزو، ١٩٨٣: ١٢٥).مكانة العقل الفكرية في السنة النبوية:عندما نجد أغلب ما ورد وما جمع من أحاديث وروايات في شأن العقل قد يشوبها الضعف وكثير من كلام أهل الحديث، وأن الوارد الذي يمكن الاعتماد عليه قليل، إذا ما قورن بما في القرآن الكريم، فقد يُتوهم بان السنة المطهرة لم تركّز على مكانة العقل المفكر لاسيما القولية منها، لكنّ الأمر يتّضح إذا ما أوردنا التطبيق العملي لإظهار مكانة العقل المفكر والحثّ على تطويره وتنويره، وعدم مصادرته وتجميده ومن أهم تلك الشواهد ما يأتي:

١– لقد بينت السنة المطهرة وبشكل جليّ أن العقل هو مناط التكليف وأن مَن سُلب هذا النور رفع عنه القلم، قال رسول الله ﷺ: ((رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل))[٢].

٢– إنّ الله يرفع أهل الأيمان وأهل العلم درجاتٍ، قال تعالى: ((يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ))[المجادلة: ١١]، وأن العقل هو أداة التفاوت في الدرجات وآلة التحصيل واستنباط الأحكام، وهو محلّ النّور الذي يلقيه الله في قلب الإنسان ليصل الى مرضاة الله وخدمة عباد الله بما يفتحه الله عليه من أنوار العلم، وقد ورد عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عَقْلِهِ، فبقدر عَقْلِهِ تكونُ عبادتُهُ، أَمَا سمعتم قولَ الفّجارِ في النّار: لو كنّا نسمعُ أو نعقِلُ ما كنّا في أصحابِ السّعيرِ)(الغزالي: ١/٨٣).ذاك أن الجاهل يفعل بنفسه من الشّر ما لا يفعله العدو به، ومما يُستأنس به في هذا المقام ما ورد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعن أبيها إذ قالت: قلت يا رسول الله بم يتفاضل الناس في الدنيا؟ قال: بالعقل، قلت وفي الآخرة؟ قال: بالعقل، قل: أليس إنما يجزون بأعمالهم؟ فقال ﷺ: يا عائشة،

وهل عملوا إلاّ بقدر ما أعطاهم الله عزّ وجلّ من العقل؟ فبقدر ما أعطوه من العقل كانت أعمالهم، وبقدر ما عملوا يجزون) (الغزالي: ٨٣/١)، وحقيقة التفاضل بين العالم والعابد هو هذا العقل الذي هو مناط التكليف وآلة الاجتهاد.

٣- العناية النبوية الكريمة للعقل وأهله وتشجيعهم والثناء عليهم ومما ورد في هذا المقام قصة أشجع عبد القيس الذي قدم على النبي ﷺ في وفد فتسارع الناس الى النبي ﷺ وتأخر هو عنهم حتى أصلح من شأنه وأستعد للقاء الرسول ﷺ، فلما حضر بين يدي رسول الله قال ﷺ له: ((إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة)) (البخاري: ٥٨٤؛ مسلم: ٢٥/١٧؛ النسائي: ٢٠١)وفي مقام آخر يوضح المكانة الفكرية للعقل المسلم في السنة النبوية التي تحترم العاقل المجدّ والمجتهد الذي يبغي الوصول الى مرضاة الله، وهذا العقل البشري قابل للوقوع في الخطأ إذا ما أجتهد، فتأتي السُنَّة النّبوية لتقدّر الجهد والسعي وترتب له أجراً وان أخطأ في الوصول الى الحق والصواب، فقال ﷺ: ((إذا حكم الحاكم فأجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فأجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد)) (الامام احمد: ١٩٨/٤؛ البخاري: ٧٣٥٢؛ مسلم: ١٧١٦)، ولم تقف السنة النبوية الى حد ضمان أجر وثواب المجتهد واحترام عقله الذي سخره في خدمة دينه بل حثت وشجعت ذلك العقل على التفكير والتطوير والإبداع والابتكار في كل مجال يقوي الدين وأهله ويعود بكل خير وصالح على الإنسان فقال ﷺ: ((من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء)) (الامام احمد: ٤/ ٣٥٧ و٣٥٨-٣٥٩؛ مسلم: ١٠١٧)ليس غريباً على دين العلم ان يفتح للعقل المفكر رصيداً، له بداية ولا نهاية له إلى ما شاء الله ليرغّب ويدفع أصحاب العقول إلى التنافس والتسابق في مكارم الأخلاق، وما دام الأمر كذلك فأن الإنسان عن طريق عقله يكمل دينه ويعظم أجره وتحسن سيرته وتتسامى عبادته، ويكون من في معيته في أمان واطمئنان.يقول د. سليمان دنيا: (ومن عظيم عناية القرآن بالعقل انه لما أراد ان يعيب عليهم -على المقلدين-، تقليدهم لآبائهم وأسلافهم لم يجعل مصب عيبه لهم أنهم قلدوا، رغم ان التقليد معيب لأنه يجعل من المقلد عالة على المقلد والإسلام يريد لكل أحد أن يستقل بنفسه ولا يكون عالة على غيره، ولكنه جعل مصب ذلك العيب ومداره أنهم قلدوا أقواماً لم يستعملوا عقولهم فقال: ((أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ))[البقرة: ١٧٠]، وهذا يعني أنهم لو قلدوا عاقلاً لكانوا معه في حمى عقله وحوزة رأيه، لأن العاقل لا يمكن ان يتنكر للتوحيد الذي جاءت به الرسل)(سلسلة الثقافة الإسلامية، ١٩٥٨: ٣٣).

٤- حرصت السنة المطهرة على تحصين العقل المسلم من البيئة المؤثرة سلباً في اتخاذ الأحكام والمواقف، ووجّهته كيف يتعامل مع مثل هذه البيئة، وما قد يتأثر به أو يتسرّع في، اتخاذ قرار معه فقال النبي ﷺ: ((لا تكونوا إمعةً تقولون ان أحسن الناس أحسنّا، وأن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم إنْ أحسن النّاس أن تحسنوا، وإنْ أساءوا فلا تظلموا))(الترمذي: ٣٢٠/٤)وقال ﷺ في موقف آخر يصحّح ما قد يشوّش على العقل من بعض الموروث التقليدي يوم موت إبراهيم ابنه، فقال النّاس وقد كسفت الشّمس لموت إبراهيم ابن رسول الله حزناً عليه، فقال الرسول ﷺ: ((ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته))(النسائي: ١٤٦/٣)ولم يكن التوجيه النبوي للسلوك الفكري عند المسلم عند حدّ الظواهر الكونية فقط بل شمل كلّ الأوهام والخرافات، وما يتعلق بأعمال السَّحرة والكهنة مما يُخدع به كثير من العوام فقال ﷺ: ((مَن أتى كاهناً أو عرافاً فصدّقهُ بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمدٍ))(أبو داود: ١٤/٤)، إذ في ذلك إلغاء لمسلمات التفكير العقلي والمنطقي السليمين. ويأتي التوجيه النبوي بأن على المسلم العاقل أن يبني ما يصدر عنه من أقوال وأحكام على أُسسٍ ثابتةٍ، ويقين لا يساوره الشك، فلا يتكلم بما لم تكتمل أدواته وآلياته، ولا يحكم حتى ينضج تصوره وهنا يخبر ﷺ عن أهم صفات العقل المسلم المفكر: فيقول: (ما ينبغي لأحدٍ أن يقولَ ما لا يعلم)(البخاري: ٣٧/٥)وينبّه ﷺ أن درجة الزّعم والظّن فيها من الضّعف ما لا يجوز اعتمادها في إصدار حكم، واتخاذ موقف وقد قيل لأبي مسعود: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في (زعموا)؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (بئس مطية الرجل زعموا)(أبو داود: ٣٢١/٣)وكان من هديه ﷺ في تأهيل وتدريب العقل المسلم وبتدّرج ما قاله ابن مسعودﷺ:(كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهنَّ حتى يعرف معانيهنّ والعمل بهنّ) (ابن تيمية/ ٦)وعن عبد الرحمن السلمي قال: (حدّثنا الذين كانوا يقرؤننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود ﷺ وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزهنَّ حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً) (ابن تيمية/ ٦)وكذلك تكون النتائج طيبة مباركة عندما يؤهل العقل ويعد الفكر للتلقي والفهم والنظر وان كلام الصحابة ﷺ أنهم تعلموا القرآن والعلم والعمل جميعاً فيه دلالة واضحة على ذلك الاستعداد الفطري، والتفاعل الذي يجب حضوره في أي نشاط عقلي فكري للمسلم.وكان من هديه ﷺ إدخال الوسائل التعليمية والإيضاحية التي من شأنها ترسيخ العلوم وتحفيز الفكر وتنشيط العقل فاستخدم عليه الصلاة والسلام الإشارة بيده وأصابعه والرسم التخطيطي على الأرض، وضرب الأمثال واستخدم التشبيه وما إلى ذلك مما يعد منهاجاً في إعداد العقل المسلم وكيفية تطويره، ونذكر بعض تلك الأحاديث الشريفة: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (خط رسول الله في الأرض خطوطاً أربعة فقال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون)(الحديث)ومما لا يخفى اليوم

أثر هذه الوسائل في تمكين العقل، وزيادة قدرته على الحفظ والفهم، بل باتت من أبجديات التعليم المتطور بعد أن أثبتتها الدراسات الحديثة التي أجريت في أكبر جامعات الولايات المتحدة والتي خرجت بتلك النتيجة، أن الفرد المتعلم يمكن ان يتذكر ١٠٪ مما قرأه، و٢٠٪ مما سمعه، و٣٠٪ مما شاهده أثناء أدائه لعمل معين(الطوبجي، ١٩٦٧: ٤٢)وقبل ان تصدر هذه النتائج فان ابن الأثير (رحمه الله) ينقل لنا عن حال السلف الصالح من عهد الصحابة ما يلي:(كان اعتماد الصحابة أولاً على الحفظ والضبط في القلوب والخواطر غير ملتفتين الى ما يكتبونه، ولا معولين على ما يسطرونه محافظة على هذا العلم كحفظ كتاب الله عز وجل)(؟؟؟: ١/٤٠).فالصحابة الذين فتحت أرض الجزيرة على أيديهم وسقطت دولة فارس والروم أمامهم وملؤوا الدنيا بالعلم والحكمة والحضارة، كانوا يتسلحون بسلاح الإيمان الصادق بالله عز وجل وبالمحبة المخلصة للنبي ﷺ وحبهم في إعمار الأرض بفكر أساسه الوحي والقرآن فلا عجب في عظمة نتاجهم الفكري وهم يحملون نور القرآن وسنة النبي ﷺ بعقل منّور وفكر ثاقب، واليوم مع كثرة التفاسير وشروح الحديث ومؤلفات التعليق والتحقيق كل ذلك قصر في الوصول إلى نتاج السلف لان العقل والفكر قد أختلف.وعوداً على بدء نقول كان الرسول ﷺ يختبر العقول ويحركها ويحفزها حتى تنشط وتستكمل نشاطها، وفي ذلك المقام نورد حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ يوم قال: (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم حدثوني ما هي) (البخاري: ١/١٩٦).يقول ابن تيمية (رحمه الله) معلقاً: (كان من هديه ﷺ انه ربما طرح المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم وليشحن أذهانهم للفهم) (ابن تيمية/ ٦)، تشويقاً وتنشيطاً للعقل.

المبحث الثالث: العناية النبوية والتربية التطبيقية للعقل المسلم

لقد أولت الشريعة الإسلامية اهتماما كبيراً بتنشيط العقل المسلم وتدريبه وإعداده ليكون مؤهلاً في استنباط الأحكام التي ليس فيها نص صريح، أو ثمة ظنية في دلالة ذلك النص الوارد، من أجل ذلك كان لأهل النظر مساحة واسعة من الحرية الفكرية المؤطرة بمصالح العباد، وتحقيق السعادة الدنيوية والأخروية من خلال فهم صحيح وتطبيق جاد مخلص، اعتماداً على العقل المسلم الكفوء.قال الشاطبي: قبل الشروع في المطلوب لنقدم مقدمة كلامية مسلمة في هذا الموضع وهي: (ان وضع الشرائع إنما هو لصالح العباد في العاجل والآجل معاً) (الشاطبي: ٢/٣).ولذلك كان من شأن الرسول ﷺ أن شجع ودرب صحابته على أعمال النظر والاجتهاد والاستنباط وكان ذلك في كثير من المواقف نذكر بعضاً منها في هذا المقام فنقول:لقد أجتهد الصحب الكرام (رضوان الله عليهم) على عهد رسول الله فما كان منه الا التشجيع والإقرار لهم وفي ذلك يقول صاحب إرشاد الفحول: (ذ هب الأكثرون إلى جواز الاجتهاد في عصره ﷺ)ولعل أبرز حادثة نذكرها هنا؛ الحديث الذي في الصحيح، بأن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم الأحزاب ان لا يصلوا العصر إلاّ في بني قريضة، فلما كانوا في طريقهم أدركتهم الصلاة – صلاة العصر – فقال بعضهم نصلي العصر حتى لا يفوت وقتها، وكان في ذلك مجتهداً إذ فهم من الأمر النبوي التنفيذ بأسرع ما يمكن، وليس المعنى ان تؤخر الصلاة عن وقتها، ولكن البعض الآخر من الصحابة أخذوا الأمر على ظاهره، وحملوا المعنى على حقيقته فلم يصلوا العصر الا في بني قريضة ليلاً، والحديث بنصه مذكور في الصحاح فلينظر[٣].وما أجمل قول الشافعي في هذا المقام لمن أستعمل العقل، وأعطاه الدور الفكري الفاعل ليجعل من الشريعة ونصوصها سعادة أبدية ورحمة إلهية: (إنّ الله جل ثناؤه منّ على العباد بعقول، فدلهم بها على الفرق بين المختلف، وهداهم السبيل إلى الحق نصاً ودلالة)(الشافعي، ١٩٤٠: ٥٠١)ومن المواقف أيضا ما فعله صحابيان كانا مسافرين فلما حضرتهم الصلاة وليس معهما ما يتوضأن به تيمما ثم صليا، ولكن قبل خروج الوقت وجدا ماءً فقام احدهما فتوضأ وأعاد الصلاة، واما الآخر فبقي على صلاة التيمم، فصوبهما واقرهما الرسول ﷺ وقال للمتيمم(أصبت السنة واجزأتك صلاتك) وقال للآخر:(لك الأجر مرتين)(أبو داود: ١/٩٣).ولم يكن التشجيع النبوي لمن اجتهد وهو غائب عنه فقط، بل كان من شأنهﷺ ان ترك سعد بن معاذ ﷺ ينظر ويجتهد بين يديه وعلى الملأ والرواية في الصحيح فحكم فيهم باجتهاده وكان رسول الله يومئذ شديد الفرح به وبإصابته الحكم وقول العدل والحق فيهم فقال ﷺ له:(لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات) (البخاري: ٥/١١٢؛ الترمذي: ٤/١٢٣)وكان من التدريب التطبيقي مبدأ الشورى، فقد استشار رسول الله ﷺ أصحابه كثيراً وهو المسدد من قبل الوحي، ولكن في ذلك من الخير والتنبيه على تنوير العقول وعدم عزلتها عن آراء وأفكار الآخرين، وأن الحكمة ضالة المؤمن وان الإنسان كلما روض عقله وفكره وتواصل مع الآخرين، فان في ذلك من النتائج ما يحبه الله تعالى ويبارك فيه.وما ابلغ ذلك الموقف يوم يستشير النبي ﷺ أصحابه في أسرى بدر، فيقول الصديق بالعفو عنهم مقابل الفدية، ويقول عمر بضرب أعناقهم فيميل النبي الرحمة ﷺ لرأي الصديق، فلما نزل الوحي كان مؤيداً لقول عمر... ! ؟ وكان ثمة عتاب لرسول الله ﷺ.قال تعالى: ((مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ))[الانفال: ٦٧].وقد ترك هذا التأديب والتدريب النبوي أثره الكبير في الصحابة رضي الله عنهم وفيمن جاؤوا بعدهم، ولعل مواقفهم وأقوالهم تفسر بوضوح هذا الأثر النبوي الشريف فهذا عمر الخليفة الثاني ﷺ يكتب الى أحد قضاته على البصرة وكان أبا موسى الأشعري

ﷺ، فيقول له:(الفهم الفهم فيما أُدلي إليك مما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سنة، ثم قايس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال ثم اعمد فيما ترى الى أحبها الى الله واشبهها بالحق) (ابن القيم، ١٩٨٧)والشواهد كثيرة بدأت مع الصديق ﷺ يوم ولى على المسلمين عمر من بعده وجمع المصحف على عهد من بعده وتضمين الصناع على عهد علي ﷺ وكل هذا وذاك أثر التربية العقلية والفكرية التي رعاها وبذرها الرسول ﷺ وهو يشرح ويبين للأمة بحاله ومقاله وفعله معنى قوله تعالى: ((وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ))[النساء: ٨٣]فهو ﷺ كان يعلم صحابته من أولي الأمر وأولي الفقه والعلم كيف يكون العقل نعم أداة للوصول إلى مراد الله إذا لم يأت نص صريح في الأمر.ولعل رواية حديث معاذ فيها كلام الا ان ابن القيم دقق في سند هذا الحديث الذي يروى بصيغة التضعيف، بان النبي ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن وقال له: كيف تصنع ان عرض لك قضاء ؟ قال: اقضي بما في كتاب الله، قال: فان لم يكن في كتاب الله ؟ قال: فبسنة رسول الله، قال: فان لم يكن في سنة رسول الله؟ قال: اجتهد رأي ولا الو ولا اقصر، قال: فضرب بيده في صدر معاذ وقال ﷺ الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول الله) (أبو داود: ٣٠٣/٣؛ ابن القيم: ٢٠٢/١)، والشاهد ان هذه الشريعة جاءت رحمة للعباد ليسعدوا فعلى الإنسان المسلم كما يجد ويجتهد في الطاعة والتسليم والعبادة في المنصوص عليه والمتواتر الذي لا إشكال فيه، فيجب عليه ان يعمل عقله وفكره للوصول الى ما فيه مصالح العباد مما لم يأت فيه نص فليس كل ما يحدث وما يقع لا بد ان يكون منصوصاً عليه في كتاب الله وسنة نبيه.يقول صاحب الملل والنحل: (إن الحوادث والوقائع في العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعد، ونعلم قطعاً انه لم يرد في كل حادثة نص – ولا يتصور ذلك – والنصوص كانت متناهية والوقائع غير متناهية، وما لا يتناهي لا يضبطه ما يتناهى، علم قطعاً أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد)(الشهرستاني: ٣٨/٢).والقياس والاجتهاد من أفعال العقل المفكر السليم.. إلا أن هذا النشاط لا يكون مع النصوص الدالة على وجوب الصلاة الصيام والزكاة والحج، وما إلى ذلك إذ هي هنا نصوص قطعية الورود والدلالة، وأصبحت معلومة من الدين بالضرورة ولكن هذا النشاط العقلي يكون مع كلّ حكم شرعي، ليس فيه دليل قطعي وما أكثر الحوادث والوقائع التي استجدت في عصرنا وتحتاج الى إعادة مكانة العقل وإعطاء الدور المطلوب بعد الإعداد والتأهيل الشرعي الصحيح (الشوكاني: ٢٢٢، الخضري: ٣٧٠).ولاشك بأن علمائنا من السلف والخلف، قد ألفوا في ذلك المؤلفات وأعطوا كل جزيئة من جزيئات ذلك النشاط العقلي اسماً ووسماً وشرطاً، ولعل من هذه المؤلفات ومن تلك العلوم، علم أصول الفقه الذي أعطى للعقل وما يحق له من حرية فكرية ونشاط اجتهادي حظاً وافراً، وفي بعض ما يتعلق بموضوعنا نورد هذا النص في نشاط العقل ضمن نطاق المصالح المرسلة:(ان الصحابة – رضي الله عنهم – عملوا اموراً لمطلق المصلحة لا لتقدم شاهد بالاعتبار نحو كتابة المصحف ولم يتقدم فيه أمرٌ ولا نظير، وولاية العهد من أبي بكر لعمر – رضي الله عنهما – ولم يتقدم بها أمر ولا نظير وكذلك ترك الخلافة شورى، وتدوين الدواوين، وعمل السكة للمسلمين واتخاذ السجن، فعل ذلك عمر بن الخطاب ﷺ وهدّ الأوقاف التي بإزاء مسجد محمد رسول الله ﷺ والتوسعة بها في المسجد عند ضيقه فعله عثمان ﷺ، وتجديد الأذان في الجمعة بالسوق فعله عثمان ﷺ ثم نقله هشام الى المسجد وذلك كثير جداً لمطلق المصلحة) (العقاد: ١٤٦).وكل ما ذكر في هذه الأسطر فيه توسعة ورحمة ورخصة وتطور يليق بأمة العلم والعقل، وبدين شاء رب العزة أن يختتم به الرسالات وان يكون الدستور الخالد حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.وقد يقال: بأن أهل الرأي في العراق قد بالغوا في استخدام عقولهم والاعتماد عليها في استنباط الأحكام !!فنقول ان هذا قد ينطبق مع حال مذهب الاعتزال ومدرستهم ولا يصلح مع مدرسة أهل الرأي إتباع أبي حنيفة النعمان ﷺ.وسوف نعقد عنواناً للكلام عن الإفراط والتفريط في النشاط العقلي لاحقاً وفي مبحث مستقل إلاّ أننا نورد ما يدافع عن مدرسة أهل الرأي على لسان رئيسهم إذ يقول:(إني آخذ بكتاب الله إذا وجدته، فما لم أجد فيه أخذت بسنة رسول الله ﷺ والآثار الصحاح عنه التي فشت في أيدي الثقات، فإذا لم أجد في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ أخذت بقول أصحابه، آخذ بقول من شئت، ثم لا أخرج عن قولهم الى قول غيرهم، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبي وابن المسيب فلي أن اجتهد كما اجتهدوا) (العلواني، ١٩٨٥: ٩٣)وفي الدفاع عن منهجية مدرسة أهل الرأي يقول ابن خلدون:(والإمام أبو حنيفة إنما قلت روايته لما شدّد في شروط الرواية والتحمل... فقل حديثه لا انه ترك رواية الحديث متعمداً وحاشاه من ذلك وأما غيره من المحدثين وهم الجمهور فتوسعوا في الشروط فكثر حديثهم، والكل عن اجتهاد (المحمصاني، ١٩٦١: ٣٥)).

مبحث: النشاط العقلي في العصر الأول

ذكرنا آنفاً ان القرآن الكريم جاء بأحكام وتوجيهات تناسب أحوال العصر الأول وأهم ما يحتاجه المسلم آنذاك، فكانت هذه النصوص بالنسبة لهم في أوضح وأصرح ما يمكن، كما أن مع وضوح وبيان الخطاب القرآني جاءت السنة المطهرة لتوضح وتبيّن وتفسر، حتى لم يبق للمكلّف من أصول العقائد والعبادات ما يحتاج فيه الى تفصيل أكثر، فكانت النصوص قاطعة لكل إشكال، أو خلاف قد يدفع العقل أو يقحمه في نشاط عقلي فضولي يبحث تحت الكليات[٤]، عن الجزئيات والتفصيلات، وما يعدُّ تكلفاً وتنطّعاً قد نهى عنه الشرع الحنيف.كما ان الرعيل الأول من الصحابة

الكرام كانوا عرباً خلص لهم حظهم من اللسان العربي المبين، فهم منذ عهد الطفولة يرسلون الى البادية لتصلح أجسادهم، وتصح ألسنتهم، وان هذا القرآن العظيم إنما انزل بلسانهم ولغتهم وهذا يعني ان الفصاحة والبلاغة القرآنية لم تكن تخفى بإشاراتها وكناياتها وبديعها وبيانها على المسلم في ذلك العصر، وان حصل ثمة إشكال فان وجود الرسول ﷺ كفيل بحله وتبيانه، إذا كانوا يسألون عما خفي عنهم وان مرت بهم حادثة ومعها آية من كتاب الله فلم يسألوا، فإنما هم على الأصل قد علموا مرادها وفهموا معناها وإلا لما صح سكوتهم ولوجب سؤالهم (الاشعري، ١٩٨٥:٤).يقول الإمام التفتازاني (رحمه الله): موضحاً إن ما حصل بعد عهد النبي ﷺ من توسيع دائرة العقل حتى شملت كل الأصول والفروع الدينية ونشأ علم الكلام الذي ما أبقى جزئية إلا وطرحها على ارض النقاش والبحث والتفكر حتى خاض العقل بما ليس له فيه مصلحة وما ليس به عليه قدرة، ونسي بأن لطاقاته حدوداً بشرية غير مؤهلة لخوض بحر المعاني الربانية، كل ذلك لم يكن على عهد النبي ﷺ لأنه كان ((بصفاء عقائدهم ببركة صحبة النبي ﷺ وقرب العهد بزمانه ولقلة الوقائع والاختلافات، وتمكنهم من مراجعة الثقات))(التفتازاني: ١١).كما أننا لا ننسى النصوص القرآنية وما ورد في السنة النبوية من تحذير ونهي عن ذلك النشاط العقلي السلبي الذي يعرف بالجدل المذموم والذي لا يفضي الا الى التنازع والتصادم.. ومن هذه النصوص:قوله تعالى: ((وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ))[المائدة: ١٤]، قيل: إن هذه العداوة والبغضاء كان سببها الخصومات والجدال في الدين(القرطبي:؟؟).واما النهي عن إقحام العقل في الجدال المذموم المفضي الى تلك الخصومات في السنة المطهرة فكثير، ومن هذا الكثير: ما روي عن أبي هريرة ﷺ قال:(خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احمر وجهه كأنما فقيء في وجنتيه الرمان فقال: أبهذا أُمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم، عزمت عليكم إلا تنازعوا فيه)(الترمذي: ٣٦٨/٤)، وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يخافون من أعمال العقل فيما لا يستوجب ذلك بل كانوا يتدافعون ثلاثاً: الإمامة والفتيا والوديعة، إذ كانوا على درجة من الخوف والورع بأن يقولوا في دين الله ما ليس منه أو ان تقصر عقولهم عن وصول مراد الله عز وجل(الطبري: ١٩٥٤: ٣٩/١)، فيقولوا فيه ما لم يقله سبحانه وتعالى.أما ما كان يستوجب منهم النظر، وأعمال الفكر فقد كانوا يبذلون قصارى الجهد في ذلك ويأمرون به كما مر معنا في رسالة عمر بن الخطاب ﷺ الى قاضيه على البصرة أبي موسى الأشعري.وفي نهاية المطاف فأن أهل العصر الأول من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وقفوا حيث يجب عليهم الوقوف عنده مما ليس للعقل فيه حظ، وتحركوا حيث وجب عليهم ذلك فتحقق ذلك التناسب والانسجام بين مراد الله في وحيه وحركة العقول فأشتغل المسلون بنشر الدعوة وتمكين الجماعة الإسلامية من الاستقرار وإرساء الحياة الإسلامية فيه على مبادئ القرآن والسنة الصحيحة بالتطبيق العملي لروح الإسلام ومنهجيته(البهي: ٧)ان وضع العقل في مكانته المطلوبة وإعطاءه الحركة اللازمة في إطار الجائز والمعقول مع الأخذ بالشروط الموصولة الى النتائج السليمة لهو كفيل بإعادة ذلك المجد العظيم والتراث الذهبي الذي كان على عهد الأولين، ذلك التراث الذي فرض نفسه على كل العقول بقوة تفكيره وسلامة نتائجه، وخدمته للبشرية وحفظ الإنسان وكرامته حتى بات الغرب، وأتباع غير هذه الملة يفخرون ويعترفون بفضل أهل هذا الدين عليهم وعلى الناس جميعاً، حتى أعتبر الإمام محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة النعمان (رحمه الله) عند الغرب الأستاذ الأول في ميدان القانون الدولي وتأسست جمعية تحمل أسمه هناك، بل إن علماء القانون في الغرب عرفوا قيمة النتاج العقلي المسلم وصلاحيته ليكون أساساً للتشريع فقرروا في مؤتمرهم المنعقد في عام ١٩٣٨م في لاهاي أن هذه الشريعة الإسلامية مصدر من مصادر التشريع، واعتبارها صالحة للتطور وأنها أصيلة غير مأخوذة من غيرها(الصالح: ٧٥).وما تقدم لا يستدل به على جواز الابتداع في الدين حذف لكن ما يراه المسلمون ويجمعون على حسنه فهو عند الله حسن من باب تزكية ما ينعقد عليه إجماع الصحابة ومن بعدهم، إذ من رحمة الله بهذه الأمة ان لا تجتمع عقولهم على ضلالة أبداً، وان هذا الإجماع برجاء ان يكون هو الحق المقبول عند الله تعالى في خدمة دينه، وعباده وإن هذا الخير موصول وباقٍ في هذه الأمة ما دام فيها أهل العلم المؤهلين للنظر والفكر والاستنباط، فهم أهل الأمة وسبيل نجاتها، وهم الذين أشار إليهم الرسول ﷺ في الحديث: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله).قال الإمام البخاري: (وهم أهل العلم)(مسلم: ٧٠/١٣).

الخاتمة

١-العقل لغةً: هو العلم، والحجر والنهية، والجمع عقول والعاقل هو الحابس لنفسه ليردها عن هواها، وعقل الشيء أدركه على حقيقته وفهمه وتدبره، وسمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن المهالك. قال الغزالي (رحمه الله): (إذا قيل ما حدّ العقل فلا تطمع في أن تحدّه بحدّ واحد فإنه هوس لان اسم العقل مشترك يُطلق على عدّة معاني)

٢-لقد أعطى القرآن الكريم للعقل ما لم تعطه إياها الكتب السابقة وان المطالع لما بين أيدينا من نسخة العهد القديم والجديد ليجد بان العقل ومادته أو ما يخصه لم يذكر الا بضع عشرة مرة وبشكل عرضي لا يتنبه القاري معها الى أهمية ومكانة تلك الهبة الربانية كما هو الحال مع القرآن الكريم اذ وردت مادة عقل لوحدها ما يقارب الخمسين مرة

٣-العقل في كتاب الله وسنّة رسوله وكلام الصحابة والتابعين وسائر أئمة المسلمين هو أمر يقوم بالعاقل، سواء سمي عرضاً أو صفة، ليس هو عيناً قائمة بنفسها.

٤-العقل عقلان: غريزي ومكتسب. وان معجزة سيدنا محمد ﷺ معجزة فيها تحدٍّ كباقي معجزات من سبق، ولكن بهدوء وروية، مع استخدام العقل، واستعمال الفكر، فالإسلام دين المعجزات التي يراها العقل حيثما نظر، وليس بدين المعجزات التي تكف العقل عن الرؤية وتضطرّه بالإقحام القاهر الى التسليم. وكثيراً ما تختتم الآيات القرآنية بعد استعراض الآيات الكونية بالعبارة ((إنّ في ذلك لآيات لقومٍ يعقلون)).

المصادر

١. الزبيدي، محمد مرتضى الزبيدي. (1956) *تاج العروس على القاموس المحيط*. بيروت: دار بيروت للطباعة.

٢. بن منظور، جمال الدين محمد مكرم بن منظور الإفريقي المصري. .(1956) *لسان العرب*. بيروت: دار بيروت للطباعة.

٣. الفيروزآبادي، محمد بن يوسف (تحقيق). (بلا سنة). *القاموس المحيط*. بيروت.

٤. المقري، أحمد بن محمد بن علي الفيومي.770) هـ). *المصباح المنير في غريب الشرح الكبير*. بيروت: المكتبة العلمية.

٥. مجمع اللغة العربية – الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية. .(1979) *المعجم الفلسفي*. القاهرة، مصر.

٦. الغزالي، أبي حامد محمد. .(1993) *المستصفى من علم الأصول*. بيروت: مؤسسة التاريخ العربي.

٧. ابن تيمية، تقي الدين أحمد.1404) هـ). *مجموع فتاوى ابن تيمية* (عبد الرحمن محمد بن قاسم، جمع وترتيب). الرياض: مطابع الرياض والحكومة.

٨. المحاسبي، الحارث بن أسد. والغزالي، أبي حامد محمد. (تحقيق مصطفى عبد القادر عطا). (بدون سنة). *شرف العقل وماهيته*. بيروت: دار الكتب العلمية.

٩. ابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي. .(1986) *الأذكياء*. بيروت: دار الحضارة.

١٠. الغزالي، أبي حامد محمد. .(1961) *معيار العلم* (تحقيق د. سليمان دنيا). مصر: دار المعارف.

١١. الموردى، علي بن محمد البصري الماوردي. (بدون سنة). *أدب الدنيا والدين*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٢. الجرجاني، أبو الحسن محمد بن علي المعروف بالسيد الشريف. .(1986) *التعريفات*. بغداد: دار الشؤون الثقافية.

١٣. البهي، محمد. .(1971) *الفكر الإسلامي في تطوره*. ط ١، مصر: دار الفكر.

١٤. الترابي، حسن. .(1987) *تجديد الفكر الإسلامي*. السعودية: الدار السعودية.

١٥. الاعظمي، محمد ضياء الرحمن. .(1995) *دراسات في الجرح والتعديل*. بيروت: عالم الكتب.

١٦. الندوي، أبو الحسن. (بدون سنة). *ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين*.

١٧. العقاد، عباس محمود. (بدون سنة). *أثر العرب في الحضارة الأوروبية*. مصر: دار المعارف.

١٨. العقاد، عباس محمود .(بدون سنة) *ضحى الإسلام* .القاهرة: دار المعارف.

١٩. العقاد، عباس محمود .(بدون سنة) *التفكير فريضة إسلامية* .بيروت: دار القلم.

٢٠. شلبي، أحمد. .(1973) *الإسلام*. ط ٤، مصر: مكتبة النهضة المصرية.

٢١. الفيومي، أحمد بن محمد بن علي. (بدون سنة). *المصباح المنير*. بيروت.

٢٢. القرطبي، محمد بن أحمد. (بدون سنة). *الجامع لأحكام القرآن*. تونس.

٢٣. رضا، محمد رشيد.1406) هـ). *الوحي المحمدي*. بيروت: مؤسسة عز الدين.

٢٤. ابن أبي الدنيا، أحمد بن محمد. (ت ٢٨١هـ). *العقل وفضله*.

٢٥. ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد. (بدون سنة). *فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال*.

٢٦. الغزالي، أبي حامد محمد. (إحياء العلوم، بدون سنة). *إحياء علوم الدين*.

٢٧. ابن حبان، عبد العزيز بن محمد. (بدون سنة). *روضة العقلاء ونزهة الفضلاء*.
٢٨. مسلم بن الحجاج النيسابوري.1414) هـ/١٩٩٤م). *صحيح مسلم* (شرح النووي). بيروت: دار المعرفة.
٢٩. الفيْروزآبادي، محمد بن يوسف. (بدون سنة). *بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز*. بيروت.
٣٠. الجوزو، محمد علي. .(1983) *مفهوم العقل والقلب*. بيروت: دار العلم للملايين.
٣١. العرقي، زيد الدين أبي الفضل عبد الرحيم. (بدون سنة). *المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الأحياء من أخبار* (تعليق على حديث ضعيف). بيروت: دار الندوة.
٣٢. الشافعي، محمد إدريس.1940/1358) هـ). *الرسالة*. مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي.
٣٣. ابن قيم الجوزية، محمد. .(1987) *أعلام الموقعين عن رب العالمين*. بيروت: مكتبة العصرية.
٣٤. الشهرستاني، يوسف بن زكريا. (بدون سنة). *الملل والنحل*.
٣٥. الشوكاني، محمد بن علي. (بدون سنة). *إرشاد الفحول*.
٣٦. الخضري، محمد. (بدون سنة). *أصول الفقه*.
٣٧. العلواني، طه جابر. (بدون سنة). *أدب الاختلاف في الإسلام*. قطر: سلسلة كتاب الأمة.
٣٨. المحمصاني، صبحي. .(1961) *فلسفة التشريع في الإسلام*. بيروت: دار العلم للملايين.
٣٩. الأشعري، أبي الحسن المروج بن المحمود المعروف بالأشعري.1985/1405) هـ). *مقدمة مقالات الإسلاميين*. بيروت.
٤٠. التفتازاني، سعد الدين سعود بن عمر. (بدون سنة). *شرح النُسفية* (على التفتازاني).
٤١. الطبري، محمد بن جرير.1954/1373) هـ). *جامع البيان عن تأويل آي القرآن* (ط ٢). مصر: مصطفى البابي الحلبي.

هوامش البحث

* فقد ذكر القرآن الكريم العقل في ٤٩ موضعاً من القرآن الكريك.

(١) لقد اهتم العلماء بموضوع العقل كثيراً وألفوا فيه المؤلفات كما فعل الإمام ابن أبي الدنيا (ت ٢٨١ هـ) في كتاب العقل وفضله عندما جمع أقوال الصحابة والتابعين في العقل، وكذلك ابن رشد في كتاب فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، واما من تعرض له في مؤلفاته فهم كثير لا سيما الإمام الغزالي في إحياءه وابن حبان في كتاب روضة العقلاء ونزهة الفضلاء.

(٢) الحديث: أخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٦ / ١٠٠، والدارمي ٢ / ١٧١، والنسائي ٦ / ١٥٦، في الطلاق، باب (من لا يقع طلاقه)، وابن حبان في روضة العقلاء، ص١٦.

(٣) الحديث

(٤)